أزمة خلق ...

قصة بقلم أحمد سويد

منذ اسبوع كامل ، وهو يعاني الازمة بصمت ، يحسها تغلي في دمه . يحمل وقرها على كتفيه آني ذهب . يسمع فحيحها في راسه . أما الان فيخيل اليه أنها قد نضجت ، وبلغت ذروتها وما عليه الا أن يفجرها هذه الليلة ويرتاح ، فالكرامة لا ترضى بحال من الاحوال ، أن يصبح الاستاذ عبد الخالق شاعر المدرسة ونجمها في كل حفلة ، وأن يستقطب اعجاب الجماهير واحترام الناس ، وآن ينحشر هو في زاوية النسيان وعتمة التاريخ .

هو يعلم أن الدجاجة تحضن بيضها بحنان وصبر لتؤدي في النهاية رسالتها وتحقق وجودها ، فتعطي الحياة ، وأن الافكار بحاجة كذلك الى حاضنة كي تنضج وتتوالد ، وتخرج بالتالي الى النور على شكل عمل فني ، فلم لا يحضن افكاره المختلطة المشوشة ليلة بطولها أن لزم الامر ، ليخرجها في الصباح معجزة فنية تصعق ذلك المغرور المدعو عبد الخالق ، وتمسح كل أمجاده الشعرية ؟

وفك الاستاذ حمدي رباط عنقه ، وجلس الى طاولته بعد أن كدس أمامه رزمة من الورق ثم أخذ القلم وهمس لنفسه :

ـ هيا يا أستاذ حمدي ، ان التركيز مرحلة أساسية في عملية الخلق ، فلنبدأ في التركيز .

وفكر أن الامور قد تجري على نحو أفضل لو خلع بدلته وحذاءه وتحرر من كل المعوقات فنهض وخلع بدلته وحذاءه ، وشعر وهو يرتدي منامته أنه قد بدأ يدخل فعلا فيما يسمى عادة بالجو .

ـ الجو ؟ صحيح ... قبل الدخول في التركيز ، يجب أن أضع نفسي في الجو .

... وتناول علبة الدخان ... هو لا يدخن ، ولكن لا بأس بسيجارة، فأغلب المبدعين يستعينون بها على خلق أجوائهم .

وأشعلها . وراح ينفث دخانها على مهل . الدخان ملبد وغامض ومشوش ... تماما كأفكاره . انه مثلها يهرب نحو التلاشي والضياع .

ـ ما رأيك يا أستاذ حمدي بفنجان من القهوة ؟

ـ فكرة رائعة . فقد يساعد فنجان القهوة على وضوح الرؤيا ، والخروج من الضبابية ، وهو على كل حال من العوامل التي تساعد عادة على خلق الجو .

... وهيأ الاستاذ حمدي قهوته ، وجلس يرشفها بتلذذ :

ـ والان ... لقد اكتملت العدة ، فلنبدأ في التركيز ؟

وهمست له نفسه : ـ ولكن يا أستاذ حمدي ...

وشد على أسنانه بغيظ : ـ ولكن ماذا ؟

ـ الا ترى أن التلذذ ببعض الشعر ، يمكن أن يكون من المقبلات الفاتحة للشهية ؟

وارتاحت أساريره للاقتراح :

ـ اجل لا بد من المقبلات لفتح الشهية !

... وتناول ديوان شعر ، وراح يقلب صفحاته . انه شعر حديث لا يهزني ، والاستاذ عبد الخالق شاعر عمودي ، وعلي أن أنازله في ساحته ، وأن أدحره بسلاحه ، أنا بحاجة الى قصيدة ذات طنين ورنين ، قصيدة تزلزلني ، قصيدة أنفعل بها وتفجر كل موهبتي المخزونة فالموهبة كالمياه الجوفية تماما ، تدور وهي محبوسة في اعماق الارض ، وتظل تدور حتى تجد المنفذ الذي تتفجر منه .

وراح يبحث بلهفة عن ديوان المتنبي ، ولكنه لم يجد الديوان . لعل أحدا من زملائه قد استعاره ، ولم يعده حتى الان ، وسب في سره قليلي الذوق الذين يستعيرون ولا يعيدون ، وفكر بأن الاستغراق قد يكون له مفعول محمود ، في التمهيد للحظة الخلق ، مفعول يغني في كثير من الاحيان عن المقبلات الفكرية ، وعلى هذا قرر أن يدخل في حالة استغراق فوري ، فركز بصره للحظات على نقطة معينة في الجدار المقابل ، ثم استرخى وأغمض عينيه ، وظل كذلك الى أن سمع دقات الساعة الكبيرة في بيت الجيران تعلن انتصاف الليل .

ـ لا بد أن أكون الان قد بلغت مرحلة من صفاء الذهن ، تمكنني من المباشرة ... فلاجرب ...

... وتذكر أنه لم يختر حتى الان موضوعا لقصيدته العصماء ، فغلبه ضحك خفي كاد يتفجر قهقهة ، لولا أن تدخل بحزم ، وعنف نفسه:

ـ لا داعي للضحك ، فالموضوع في البدء لا يهم . بل المهم استكمال العدة ، وها قد استكملنا العدة ، فلننتقل فورا الى اختيار الموضوع .

... وأسند ذقنه الى ظاهر يده ، ومضى يتساءل :

ـ ماذا ستختار يا أستاذ حمدي ... ماذا ستختار ؟ الغزل ؟ لا ... انه موضوع عتيق مستهلك ، لا يثير الحماس ، ولا يساعد على قهر الخصم ... ثم أنك في هذا المضمار فارس مقهور ...

الرثاء ؟ ... لكي يكون الرثاء ناجحا يجب أن يكون وليد الانفعال والتفجع الحقيقيين .. فمن سترثي يا حمدي أفندي ... لقد ماتت أمك منذ عشر سنوات واندمل جرحك أو كاد ، وليس هناك أحد من أقاربك يبدو أنه مرشح للموت عما قريب ، ثم أن قصيدتك الاولى ينبغي أن تتفجر كالقنبلة ، أن يكون لها دوي بين الناس ، وهذا الدوي ، لا يكون عادة ، الا للقصائد الوطنية .

اذن ، اتكل على الله وعالج موضوعا من الموضوعات الوطنية .

... واتكل الاستاذ حمدي على الله ، وقرر أن يفتح أبواب القريحة على مصاريعها ليتدفق منها الخير ، ولكنه اصطدم من جديد بعائق لم يتحسب له ، فالموضوعات الوطنية أكثر من أن تعد ، فلاي موضوع منها يجب أن يتصدى ؟

... وادرك أنه وقع في مأزق جدي قد يفسد عليه كل استعداداته ويؤدي الى تخريب مناخه النفسي ، فنهض من مكانه ، وقد أقلقه هذا التخوف . ولكي تبدو عليه آثار المعاناة الحقيقية نفش شعره ، وقنطر حاجبيه ، وراح يذرع أرض الغرفة باحثا عن موضوع شعري مناسب يليق بأولى روائعه .

يكتب عن مأساة فلسطين ؟ ... ولكنه موضوع ملحمي واسع لا تلم به دواوين كاملة ، فكيف يجوز ملامسته بقصيدة واحدة ؟

يكتب عن أحد جوانب المأساة ؟ عن مجزرة دير ياسين مثلا ؟ ... ولكن الشعراء لم يدعوا شيئا الا وقالوه عن هذه المجزرة ، وهو يكره التقليد ، ولا يحب أن يكرر ما قاله الاخرون .

ـ يصف بؤس اللاجئين ؟ ... ولكن الوصف يقتل الحماس وهو يريد شعرا جماهيريا يثير الاكف ، ينتزع الهتاف .

ـ يتغنى ببطولة الفدائيين ؟ ... شيء رائع ، ولكنه لا يستطيع

ان ينفخ فيما يعطي حرارة التجربة ولهبها ، فهو لا يعرف الا القليل القليل عن الابطال المجهولين .

.. وطفت على احساسه موسيقى قافية رائية ، ما فتئت تمور في دمه ، منذ اللحظة التي امسك فيها القلم . لكم يحب القافية الرائية ، ففيها جرس مؤثر وايقاع مهيب كايقاع طبل ضخم في ليل طويل ساكن :

يا قمر ـ يا سمر .

ـ اذن القافية جاهزة يا أستاذ حمدي ، ولم يبق عليك الا أن تجد الموضوع .

.. واحنقه أن يكون الاستاذ عبد الخالق أبرع منه في الاهتداء الى مواضيعه ، وصمم على أن يحسم الامر بسرعة ، فقد بلغت الساعة الخامسة ، وبدأت المدينة تتململ لتستقبل طلائع الفجر .

... وتخطف انتباهه صرير باب يفتح في الخارج ، وانزلاق سيارة تمر متعجلة ، وبوق بائع الكاز يرتفع متقطعا مبحوحا ، ووقع أقدام تدب على الطريق بحزم يخالطه التثاؤب ، فكادت أفكاره تقع فريسة الشرود والتشتت ، ولكن الوحي هبط عليه فجأة ودونما عناء ، نزل عليه رخيا ناعما ، جبريلي النغمة :

ـ لتكن رائعتك البكر يا أستاذ حمدي دعوة الى الجهاد في سبيل الوطن ؟

وتنفس ملء رئتيه .

ـ الحمد لله . لقد انتهت الازمة ، وباتت القافية جاهزة ... والغرض الشعري جاهزا ، والافكار جاهزة ... ولن يستغرق سكب هذه المواد على شكل قصيدة سوى لحظات ، يقدر بعدها للاستاذ عبد الخالق أن ينمسح تماما من الوجود الشعري ، ودنيا الشهرة .

وهرع الى القلم ، وهو يدمدم بالمطلع :

ـ يا ربة الشعر .

... ودوى تصفيق الجماهير في أذنيه .

ـ لحظة من فضلكم ، فأنا لا أحب المطالع التقليدية ، أليس من الافضل أن أبدأ هكذا :

ـ يا شعر ....

عظيم يا أستاذ حمدي . رائع يا أستاذ حمدي .

واستمهل الجماهير ريثما يأذن لشمس الصباح التي تقف وراء نافذته أن تدخل .

... وأسرع الى النافذة ، فشرعها ، وقال للشمس بلهجة اعتداد : تفضلي ، فتفضلت ، وانسكب الذهب في أرض الغرفة ، وانساحت في الجنبات دفقة من الدفء والعذوبة ونداوة النهار الجديد ، وشاع في نفس الاستاذ حمدي شيء من الاسف والمرارة الخفيفة ، فقد كان يأمل أن يقع الحدث السعيد وتولد رائعته هي والنهار في لحظة واحدة ، ولكن هوذا النهار يطلع على الدنيا وحده ، وهو ما زال يقف عند المطلع.

ـ لا بأس ... فالمطلع هو المفتاح .. ومن يملك المفتاح .. يدخل .

ورجع الى « جوه » سريعا فالجماهير تنتظر ، وهتافها المتواصل يضج في رأسه ، والقافية الرائية تمخضه وتعرك أعصابه ، والقلم متأهب ، ينتظر أن يتدفق من بين شقيه نهر العبقرية .

... يا شعر ؟ يا شعر ؟؟

ويطرق الباب عدة طرقات ، فيثب اليه مسعورا ، ويشقه قليلا ، ليفتح النار بقسوة على بائع الحليب :

ـ يا قليل الذوق ، يا قليل الادب ، أغرب من وجهي ... لقد نفرت بنات أفكاري وعكرت علي الجو .

ويقلب بائع الحليب شفتيه ، مشدوها ، ويتدحرج على السلم ، وهو يرتعد ويتمتم بالتعاويذ ، ويعود الاستاذ حمدي وهو يترنح :

ـ يا شعر ... يا شعر ...

يرددها في سره عشرات المرات ثم يجهر بها ، ينغمها بلهجة مبتهلة آنا ، مزمجرة آنا اخر ، ولكن الشعر عنيد الرأس على ما يبدو لا ينفع معه عنف ولا لين ، والافكار التي عايشته وحضنها طوال الليل تتمرد عليه ، وتتسلل هاربة من شقوق الابواب ، واستحسان الجماهير يتحول في سمعه الى صخب ساخر ثم الى قهقهات هازئة ، والاستاذ عبدالخالق يبدو لعينيه واقفا على منصة عالية ، يبتسم بهدوء ولؤم وثعلبية ..

ـ مستحيل . مستحيل . لا بد أن أكملها ،

ويشد الاستاذ حمدي على القلم بقسوة حتى ليكاد ينقصف بين أنامله ، ويعتصر جبهته العريضة حتى ليكاد جلدها يتمزق ، ومع ذلك يعجز عن اقتناص خاطرة واحدة ، أو شطر من بيت .

ويقتحم سمعه عنوة ، صوت الجارة أم حلمي ، وتنفرز جعجعتها في صدغيه كالابر . انها كعادتها كل صباح ، تحاور بائع الخضار وتناوره . يعيد عليها نشرة أسعاره التفصيلية ، فتستفظع ، وتساوم ، ولكنها تنتهي دوما بالاستنكاف عن الشراء ، وبتذكيره بأن الطمع مرذول ، وبأن قلوب التجار بحاجة الى أن تدخلها مخافة الله .

ويبدأ قبقاب الحاج حسني نزهته الصباحية المعتادة ما بين المطبخ والشرفة الغربية ، ويظل يقرع بكعبه الخشبي يافوخ الاستاذ الى أن يتكرم سميح أفندي مأمور الهاتف ، فيطل برأسه من نافذة غرفته ليتقبل تحية الحاج الازلية : كيف أصبحت يا جار ؟

ويخطر لاحد صبيان الحي العفاريت ، أن يتسلى ، فلا يجد ما يتسلى به سوى دحرجة البرميل الذي وضعته البلدية في مدخل الزاروب ، ليلقي فيه سكان الحي أقذارهم اليومية ، فظل فارغا لان سكان الحي ... يفضلون أن يكدسوا أقذارهم في المدخل .

وتتطوع الجارة أم سمير ، للترفيه عن الحي كله ، فتطلق العنان لمذياعها الذي أحب أن يستهل نشاطه الترفيهي ، لهذه الصبيحة ، ب « يا عواذل فلفلوا » .

استير استنهوب

ملكة العرب غير المتوجة

في النصف الاول من القرن الماضي انطلق من اوروبا تيار رومنطي يمثله نفر من الادباء والمغامرين ، فوصل بعضهم الى لبنان ، وتجولوا فيه ناشرين بعض آرائهم وصورا عن نظرتهم الى الحياة . ومنهم نبيلة انكليزية مدهشة استقرت في جون حيث انشأت دويلة اقطاعية نافست بها الامير بشير شهاب الثاني ، ومحمد علي باشا ، خديوي مصر ، ومصطفى بربر والي طرابلس.

سافرت الى تدمر متحدية القبائل العربية . زارت بعلبك . اصيبت بالطاعون ونجت من الموت باعجوبة . شنت حربا دامية على جبال العلويين . أحاطت نفسها بالفلكيين والمشعوذين . كادت تصبح ملكة نجد . بذرت المال بلا حساب ، ثم وافاها الاجل في غمرة من العوز والفاقة .

هذا هو موضوع الكتاب الجديد « استير استنهوب » الذي وضعه الاديب جورج مصروعة ، واصدرته « دار المكشوف » انيق الاخراج ، مزدانا بالصور .

وينبري مذياع اخر فاجر النبرة مجهول الهوية ، ليشاغب على أم سمير ، ويتحدى برنامجها الفنائي بأوامره الرياضية :

ـ واحد ... تنين ... ثلاثة .

***

وشعر الاستاذ حمدي ان رأسه لم يعد رأسا حقيقيا ، بل كرة حجرية ثقيلة ، محشوة بالجهل والبلادة والضيق .

ومزقه هذا الشعور ، تكاد يندفع الى الشرفة ليصرخ في وجه الجيران :

ـ اخرسوا جميعكم . اصمتوا . فانا بحاجة الى الهدوء .

الهدوء ؟ عبثا يا أستاذ حمدي ، انك لن تستطيع أن تلجم هدير الحياة وضجيجها في الحي ... فما رأي جنابك اذن بجلسة هادئة على الشط ، تستطيع خلالها أن تضع حملك بعد هذا المخاض الطويل ؟

... ولم يتردد الاستاذ حمدي . تابط أوراقه بسرعة ، وطار الى الشط .

النهار هنا بلا صخب . يستقبل الشمس وهو مسترخ على صفحة البحر ، كفيلسوف خصب التأملات ، بل كطفل لا يعرف القلق .

هنا أستطيع أن أكملها .

... وصفق للخادم :

ـ نارجيلة يا ولد .

... وفاش أوراقه بعناية ، واصطنع لنفسه سمت التأمل المستغرق ، وشلح بصره فوق المدى الفسيح الازرق . هذا المدى سوف ينشق في لحظة ما عن حورية ، تخرج من الماء ، وتهرع اليه توا لتملي عليه أعذب الشعر . وكان في كل لحظة يتخيل ان البحر ينشق فعلا ، ولكن الحورية التي ينتظر ، كانت تنمسخ ، في كل مرة ، سمكة عابثة تنط من الماء ، لتؤدي على سطحه بعض حركاتها البهلوانية ثم تغوص وتغيب في الاعماق دون أن تترك وراءها سوى بعض التموجات الخفيفة .

وأطلت من الافق باخرة تتهادى على مهل . ساريتها عالية ، ودخانها خفيف ، أتراها سفينة تجارية أم سفينة ركاب ؟ ما أصعب أن تفاجيء العاصفة السفينة وهي في قلب البحر ، لكأنه يقف الان على ظهرها وهي تتسلق جبال الموج ، وتصارع قدرها ببسالة ؟

... ويخض رأسه بعنف :

هذه الافكار الطفيلية من أين تأتيه ؟ هو لا يستدعيها ، فكيف تقحم نفسها عليه ، وتستبيح خاطره بمثل هذه السهولة ؟

زلزال في طشقند ؟..

ويكاد يصرخ بالشاب الذي يجلس قريبا منه : « يا أخي ، اطو جريدتك ، ودعنا في جو الخلق ؟ » ، ولكنه ينشغل عنه وعن جريدته وزلزال طشقند ، بآخرين يتضاحكان في الزاوية لسبب لا يعرفه ، وبثالث ورابع يلعبان النرد ، وتثقب طرقعة أحجارهما أذنيه بفظاظة لا توصف .

.. ومن تحته يصرخ صياد يتجه نحو الشط بزورقه المثقل بالصيد ، وعلى الشط قبالته ، رفيق يلوح له بابتهاج ، وعلى الطريق تمر عربة يجرها حمار نشيط ، يبدو أنه مزهو بعض الشيء بما يسحب وراءه من خيرات الحقول المجاورة .

وفي اللحظة نفسها ، تقبل ، من بعيد ، هبة ريح ، فتدور في جنبات المقهى كأنها تبحث عن شيء ضائع ، ثم تتجه الى طاولة الاستاذ حمدي ، فتتزوبع حولها وتنقض على أوراقه ، فتتخطفها وتلقي بها في البحر .

... ويفتح « الاستاذ » فمه من الدهشة ، وهو يراها تتساقط نحو الماء على مهل ، ويتراءى له الاستاذ عبد الخالق فوق منصته العالية ، يرمقه بطرف عينه ، باسما ، ويرفع يده اليمنى ويلوح بها تحية للجماهير .

أحمد سويد

صدر عن دار صادر

ق.ل.	
٣٠٠	**ايوب** مسرحية تأليف مخائيل نعيمة
٤٠٠	**عهد أردشير** تحقيق الدكتور احسان عباس
١٠٠٠	**ديوان سبط ابن التعاويذي**
٦٠٠	**ديوان الحطيئة**
٦٠٠	**ديوان قيس بن الخطيم** تحقيق الدكتور ناصر الدين الاسد
٥٠٠	**ديوان لبيد بن ربيعة العامري**
٦٠٠	**الفن الاسلامي** ترجمة الدكتور احمد موسى
٣٠٠	**قصص المانية حديثة**
١٦٠٠	**ادب الكاتب** لابن قتيبة طبع بالاوفست عن الطبعة الاوروبية
٥٠٠	**الشعر العربي في المهجر** ـ اميركا الشمالية تأليف الدكتور احسان عباس والدكتور محمد يوسف نجم
٤٠٠	**رسالة التوابع والزوابع** تحقيق الاستاذ بطرس البستاني
٧٥٠	**الفخري** لابن طباطبا
١٨٠٠٠	**الكامل في التاريخ** لابن الاثير ١ ـ ١٢
٣٠٠٠٠	**تاج العروس** ١ ـ ١٠ مجلد بالقماش طبع بالاوفست عن الطبعة الاولى

مركزها : شارع مار منصور ـ بناية خاتون ـ تلفون ٢٣٠٤٨٠

العنوان البريدي : دار صادر ص. ب ١٠ بيروت